نصوص المكان في الأدب العراقي الحديث
مقاربة مفهومية مع السيرة الذاتية

الأستاذ الدكتور **الباحثة**
ضياء الثامري **ندى ناصر شرهان**
قسم اللغة العربية – كلية الآداب– جامعة البصرة

المقدمة:

كثرت في العقود الأخيرة نصوص أدبية من نوع خاص ، غير محددة أجناسياً تعنى بوصف المكان ، والحديث عنه ، الأمر الذي أدّى إلى اختلاف النقاد حول تحديد نوعها ، وموقعها في خارطة الأدب . فبدأوا يطرحون آراءهم وتوصيفاتهم ، بأن هذه النصوص نوع سردي يختلط فيه البعد الواقعي مع البعد التخييلي . وهي نصوص حداثوية تعطي للمكان أهمية فائقة .إلا أن هذه الآراء والتوصيفات العابرة حول نصوص المكان ، تتخللها بعض التساؤلات الضمنية –من قبل النقاد أنفسهم –،إذ أن نص المكان ليس رواية ، وهو ليس قصة ، أو سيرة ذاتية ، وقد يكون سيرة لمكان الكاتب ..وبما أن نصوص المكان لم تحظ بالدراسة ، ولم تنل حيزاً أجناسياً ضمن الأنواع الأدبية ، لذا جاءت هذه الدراسة ، وهي جزء من دراسة مفصّلة حول هوية هذه النصوص ، ومقاربتها مع الأنواع الأدبية الأخرى ، فظهرت أنماط عدّة منها النمط السيري والنمط التخييلي والنمط المختلط ، وجاءت هذه الدراسة ، لتوازن بين نص المكان والسيرة الذاتية ، بوصفها إجابة عن سؤال : هل أن نص المكان سيرة ذاتية للكاتب ؟ أم إن سيرة الكاتب جزء يقتحم نص المكان ؟

مدخل:من الطبيعي أن تنعكس ظروف مجتمع ما، على الأعمال الفنية لدى مبدعيه . والعراق بوصفه أحد أكثر البلدان التي تعرضت لتطورات سياسية واقتصاديه تركت أثرها على المكان والكائنين على حدٍّ سواء . إذ ان طبيعة التطورات السياسية والاجتماعية والتحولات الاقتصادية والفكرية في تاريخ العراق الحديث ، افرزت نمطين من السرد :

الأول: يُمثّله شريحة من الأدباء الذين تركوا أماكنهم لسنين طويلة ، ثم عادوا إليها، بعد سني الخراب والدمار ، فكتبوا عن أماكنهم نصوصاً، تماهت فيها الذات مع المكان .

والثاني: يُمثّله شريحة من الأدباء لم يتغربوا عن أماكن سكناهم وإنما ظلوا يرصدون تلك التحولات والتغيرات البيئية وما تجرّه ورائها من انعكاس سلبي على المستوى الفكري ، والأخلاقي والثقافي عموماً . فنظروا إلى أماكنهم بعين الغريب الذي ينفصل ذاتياً، عن مكانه لأجل إدراك وفهم مجريات الاحداث ، وتحولات المكان .الأمر الذي هيّئ استعداداً لدى المؤلفين لأن يُنتجوا نصوصاً سردية متحررة من قيود وقوانين النوع المعدّ سلفاً ، كالرواية والسيرة الذاتية والقصة .إن هذه النصوص وإن إحتوت على بعض عناصر الدراما ، مثل : الحوار، ووصف المشهد ، وأخذت من الشعر ، الصورة ، واللغة الإيحائية الشاعرية – أحياناً – إلا أنها تمثل الجنس الحكائي ، من حيث طريقة التعبير – سرد لا عرض – كما أن هذه النصوص وإن إشتركت مع الأنواع الأدبية الحكائية الأخرى ، في السرد ومكوناته : زمان ، مكان ، شخصيات ، أحداث ، وحوار إلا أنها تتميز عن غيرها من الأنواع ، في المعالجة الفنية لهذه المكونات ، وفي المقصدية . إذ أن قصد الكاتب في التأليف يخرج عن الإندراج تحت أي من الأنواع الأخرى ، لأن هذه النصوص متحررة / مرنة ، أولاً . ولأن غايتها تتعالى على الأنواع الكتابية الأخرى ، ثانياً . فلا الرواية أصبحت تفي بالغرض ، ولا السيرة الذاتية ، تقدم الحياة والمكان بهذه الكيفية .

إذ نجد أن كتاب هذه النصوص وقفوا حائرين أمام أماكنهم المحليّة ، بعد التحوّل والخراب الذي حل بها ، ليعيشوا أحلام يقظة ، عبر إستعادة الذكريات ، فيقعوا تحت ضغط العلاقة / الجدلية بين الماضي المفقود والحاضر البائس . بين غياب الأليف وحضور الموحش الغريب .وهكذا يقف الكتّاب بين موقفين :

الأول: شعرية المكان لدى باشلار ، إلا أنهم فقدوا هذه الشعرية / ألفة المكان ، بعد وقوع الأحداث المؤسفة ، فلم يبق منها غير الذكرى .

والثاني: موقف الأطلال ، الذي سبقهم إليه الشعراء القدامى ، فقديماً كان الوقوف على الطلل ، داعياً لبكاء الأهل (الحبيبة أو القوم) ، أما وقفة هؤلاء ، فهي تختلف تماماً . إذ إن البكاء والحزن –هنا– على المكان تحديداً . وعلى تلك الحياة الضائعة التي تلاشت تحت دمار الحروب والتخريب ، الذي طال هذه الأماكن .

الأمر الذي يدعو إلى ظهور وظيفة جديدة ثابتة ومحددة ، تشكل العناصر الأساسية الأخرى ، في الحكي، تنسجم وجدّة هذا النوع الأدبي وميوله ، فإذا كانت وظائف المكان في تطور، عبر العصور، إبتداءً من الوظيفة الزخرفية ، مروراً بالوظيفة التفسيرية – التي تفسر طبيعة الشخصية ومزاجها – ، إلى الوظيفية الإيهامية – في عالم الرواية التخيلي – ، فهي اليوم في طور إنتاج وظيفة أخرى وهي الشعرية أو الذاتية . فالإحساس بالمكان ، في لحظة رؤية التحوّل القسري ، يستدعي الدهشة والإنفعال حد التماهي والذوبان في المكان . الأمر الذي يدعو الكاتب إلى إفتراض مكان ذاتي ، يكون مزيجاً من ذكرى المكان الأليف ، ومأساوية المكان / الحاضر ، الذي يدعو إلى الوحشة والغربة . لذا ، يمكن أن نقترح له اسماً (المكان الذاتي) ، – قد يكون فيما بعد مصطلحاً – ، بوصفه نوعاً أدبيّاً جديداً ، يُنتج من تقابل صورتين متناقضتين ، الصورة الأولى ، هي للمكان المرجعي/ الواقعي. والصورة الثانية ، للمكان نفسه ، ولكن في زمنه الماضي . فيبدأ الكاتب بخلق الصورة الإبداعية ، المفترضة ، ليوهم القارئ بما كان عليه ، هذا المكان المهمّش . الأمر الذي يبعث على الحزن والمأساة ، داخل (المؤلف والقارىء معاً) ،

وعلى الدهشة والإضحاك ، أحياناً ، تبعاً لأسلوب الكاتب ، وخبرته الفنية ، في خلق المفارقات الساخرة . إذ نجدهم يعالجون المكان ، عبر الذاكرة ، فيضفون عليه صفات شاعرية ، ليغدو أجمل من حقيقته ، ذلك لأنهم ينظرون إليه في زمن الكتابة ، الذي يسيطر على مشاعرهم وخيالاتهم ، فيكتبون وفق ثقافات مرجعية ، وصياغات أسلوبية متنوعة ، تناسب الحالة الشعورية ، وحجم التحوّل السلبي لمكان الكاتب . لذا سيكون المكان في النص ذاتيّاً بمعنى الكلمة ، إذ لكل كاتب، مكانه الذي يفترضه . لذا تغدو هذه النصوص متنوعة ، جاذبة ، لايشعر القارئ معها بالملل مهما كثرت وتعددت ، لأنها صنعت من فكر وثقافة وشعور وأسلوب يختلف من كاتب لآخر . إن هذه الوظيفة – تقديم المكان الذاتي – تتطلب آليتين : هما الوصف والسرد ، فعند ذكر تحولات المكان وتغيّراته القسريّة ، لابّد من سرد للأحداث ، وعند تذكّر المكان الأليف وجماله ، لابدّ من اللجوء الى عنصر الوصف . إلا إن التنوع الكتابي داخل نص المكان (قصص ، مذكرات ، شعر..) يُغلّب عنصر السرد على عنصر الوصف . ذلك أن وصف المكان ، في حالاته وتغيراته ، عائد إلى فعل الأحداث ، غالباً . فتغدو نصوصاً سردية ، لتنوعها وتحررها من جهة ، ولأنها إفراز اجتماعي من جهة أخرى . في المحصلة سيتكون داخل نص المكان الذاتي ، سِيَراً لأمكنة جزئية : شارع / نهر / محلّة / مقهى .. ، داخل المكان الكلي / المدينة . ولأن المكان ، ذاتيّ ، يفترض أن تندرج السيرة الذاتية للكاتب ، بوصفة كائناً / شاهداً على المكان في الحالتين ، قبل الأفول وبعده . وهذه السيرة الذاتية تستدعي سرد كل الأحداث والشخصيات التي كانت في ذلك المكان ، فيتضمن نص المكان عدداً من السِيَر الغيريّة أو التراجم الشخصية ، لكل من تقع ذاكرة الكاتب عليه .وتجنباً للإشتباه المعرفي بين نص المكان الذاتي وبين السيرة الذاتية إرتأينا عقد موازنة ، بين النوعين السرديين . لما لهما من تطابق بين المؤلف والراوي والشخصية .

كما إن وفرة هذه النصوص المكانية الإبداعية ؛ وضعت القارئ أمام تساؤلات عدّة : هل هذه النصوص سيرة ذاتية للكتّاب ؟ أم إنها سير لأماكنهم المحليّة ؟ أم هي مكان ذاتي يُخلق من خلال تماهي ذواتهم مع أماكنهم الأليفة بعد رؤية حلول الخراب فيها ؟ هذه التساؤلات وغيرها دعت الى الدراسة والكشف عن هذا النوع الجديد في الأدب العراقي الحديث . آملين أن نقدّم إضافةً جديدةً لمكتبة الأدب والثقافة عموماً .

نص المكان الذاتي والسيرة الذاتية :شهدت السيرة الذاتية حضوراً واسعاً في الدراسات النقدية ، بوصفها نوعاً مستقلاً له مقوماته وأسسه البنائية الخاصة ، على الرغم من كثرة تنويعاته وتفريعاته ، ذلك بحكم انفتاحه على أساليب الكتابة الإبداعية المتنوعة نتيجة التلاقح بين نوع السيرة وغيره من الأنواع الأدبية ، كالرواية ، والقصة القصيرة ، والمقالة .. وقد تعددت المفاهيم حول السيرة الذاتية ، ومن أقدمها ما ذكره فابيرو ، بأنها " كل نص يبدو أن مؤلفه يعبر فيه عن حياته واحساساته ، مهما كانت طبيعة العقد المقترح من طرف المؤلف، وهذا المعنى هو الذي قصده فابيرو في "المعجم الكوني للأدب" (1876) الذي يقول فيه بأن السيرة الذاتية عمل أدبي ، رواية ، سواء كان قصيدة أم مقالة فلسفية ، الخ ... قصد المؤلف فيها بشكل ضمني أو صريح إلى رواية حياته وعرض أفكاره " [1] .إلا أن فيليب لوجون عدّ هذا المعنى مشكلاً وقع فيه الباحث . لأنه يشمل كل الفنون ، ذلك أن الفن جزء من حياة الفنان وفكره ، ورؤيته ، وهذا ما ينطبق على نص المكان الذاتي ، بوصفه فنّاً أدبيّاً ، يُعبّر فيه المؤلف عن رؤيته للمكان والكائنين ، كونه راصداً للأحداث والشخصيات الواقعية والقصص والمشاهدات..عبر الذاكرة ، والبحث الميداني ، وفعل الإستجواب.. عارضاً لأفكاره، سارداً لحياته وتجاربه الشخصية. فحسب تعريف فابيرو سيكون نص المكان سيرةً ذاتية . بل ستكون كل الأعمال الأدبية ، التي تعرض أفكار الكاتب ورؤيته ، سيراً ذاتية !!لذا لجأ فليب لوجون إلى وضع حدّ للسيرة الذاتية فعرّفها على أنها " حكي استعادي نثري يقوم به

شخص واقعي عن وجوده الخاص ، وذلك عندما يركز على حياته الفردية أو على تاريخ شخصيته ، بصفه خاصة "[٢] .

فهي " كتابة الشخص لتاريخه وقصة حياته بقلمه "[٣] . وهي – أيضا– " سرد قصصي يتناول فيه الكاتب ترجمة حاله "[٤] . ويدل مصطلح السيرة الذاتية – أيضا– " على الكشف الذاتي لجانب من جوانب الحياة الشخصية "[٥] ..يُلاحظ من خلال هذه التعريفات ، أن هناك نقاط تماثل واختلاف بين نص المكان الذاتي – الذي قدمنا له– والسيرة الذاتية ، من حيث الخصائص الأساسية ، والثانوية كذلك .

خصائص نص المكان الذاتي موازنةً بالسيرة الذاتية :

أ – طبيعة الحكي :– سرد كتابي يعتمد القص الإرتدادي في كلا النوعين نص المكان و(السيرة الذاتية) . وعادةً ما يكون ، الواقعي أكثر حضوراً من التخييلي ، إلا أن نص المكان ، أكثر تحرراً وتنوعاً ، من السيرة الذاتية ، في الخروج من الواقعية إلى التخييلية ، حتى لنجده يشكّل نمطاً تخييلياً قائماً بذاته .

ب– المؤلف :– نجد أن المؤلف – في كلا النوعين – مطابق للراوي، والشخصية الرئيسة . ولقد حّدد فليب لوجون استقلالية السيرة الذاتية ، نوعيّاً ، من خلال مقاربتها في خصائصها النوعية ، فعلى الرغم من اشتراكها مع رواية الشخصية في القصّ الإرتدادي ، واشتراكها مع السيرة في تناولها حياة الفرد ، كمحور للكتابة ، إلا أنّ رواية الشخصية لا تقوم على تطابق بين المؤلف الواقعي والراوي والشخصية . وكذلك السيرة ، تفتقر إلى التطابق بين الراوي والشخصية الرئيسة فأثبت بذلك أن هذا التطابق بين المؤلف والراوي والشخصية ، هو من يحقّق للسيرة الذاتية ، استقلالها النوعي . فالتطابق والقص الإرتدادي إذا توافر في النص ، يكون سيرة ذاتية [٦] . وقد غاب عنه أنه قد يأتي نوع يشترك مع السيرة الذاتية ، في التطابق بين المؤلف والراوي والشخصية، فضلاً عن القصّ الإرتدادي في السرد الكتابي . إلا أنه – النوع الجديد– يفترق عن السيرة الذاتية ، في الموضوع المطروق .

ج – ثيمة النوع :– حيث يكون في السيرة الذاتية ، (قصة حياة الفرد) الذي يساوي بين المؤلف الواقعي بينما يكون– الموضوع – في النصوص المكانية ، هو (المكان الواقعي في حالة التراجع ، في تقابل مع حاله في الماضي حيث الألفة ومظاهر الجمال) .ومثلما تتطلب سيرة حياة الفرد – في السيرة الذاتية – ذكراً للأحداث والأماكن والشخصيات ، والسرد المستعاد عبر الذاكرة . كذلك الأمر في الحديث عن حالات المكان الواقعي في تغيّراته وتحولاته . إلا أن جوهر الافتراق يكون في المقصديّة . أي قصد المؤلف من كتابة النص . ففي السيرة الذاتية يكون القصد التعريف بالشخصية ، وفي المكان الذاتي ، يكون القصد ، التعريف بالمكان المرجعي في رؤية الكاتب .

٢ – دواعي الكتابة وشروطها :تعددت أسباب كتابة السير الذاتية ، " فهي تعدّ في أغلب الأحيان قولاً حاسماً لما يتعلق بمسيرة حياة كاملة أو ردّاً غير مباشر على آراء جدالية تعرّض لها المؤلف في حياته أو موقفاً تجاه قضايا تخصّ الوجود أو المجتمع أو السياسة ، وإذا كان المؤلف ، صاحب السيرة يشعر بوقع الزمن الذي يهدّده ، ويعرّض مشروعه للتبدد والتلاشي في مرحلة ما من مراحل الحياة ، فإنه يجد في كتابة سيرته الذاتية الفضاء الأرحب لحسم مواقفه تجاه نفسه والمناخ الثقافي والإجتماعي الذي يعيش فيه"[٧] .في مقابل هذه الأسباب نجد أسباباً أخرى تدعو لكتابة نص المكان، " إذ إن استحقاقات الوعي المهيمن والمرجعية الثقافية للكاتب هما اللذان يصنعان مسارات قراءة المكان تحت تأثير الرؤيا المغايرة للآخرين .. ماهو مدفون مابين نفايات المكان وما قُبِرَ تحت سطحه الظاهر .. ماهو مستقر في القاع هو الذي يبرز من تحت يد الكاتب " [٨] . حيث يعيد صياغة أسئلة فلسفية عن وجود المكان والكائنين ، عبر كتابات تُعيد للمكان ، الحياة قبل الأفول [٩]. وحيث استعادة حلم المدينة القديمة ، وإن صارت خراباً [١٠] ، من خلال تقديم مستوى الحيوات المسحوقة فيها ، وتأشير تاريخهم الفرداني [١١] ، إذ لايمكن التعرّف على المكان دون هؤلاء فهي رحلة " اكتشاف المعنى وليس سياحة عابرة "

[١٢] . وإذا كان " سرد السيرة الذاتية ، وذاكرتها ، قد تكون بمثابة تصحيح مهم للمفاهيم المبكرة "[١٣] لدى كاتبها ، فإن سرديات هذه النصوص ، كانت بمثابة ثورة على نمطية السرد ، حيث لم تعد تتفع تلك السرديات (الرواية /القصة/الشعر..) ، في الكشف عن معنى تناقض الحياة المعاصرة ، فهي – اليوم– عاجزة عن موائمة سخونة الفكرة الطازجة مع واقع الحياة المعاش [١٤]. أما كتّاب هذه النصوص المكانية ، فهم يقرأون " الأشياء وهي تغادر الظلمة كي تحضر في الوجود " [١٥] . فمثلما يرى الناس " آثار حيواتهم وروايتها وسيلة مناسبة وضرورية لتحقيق مقياس لفهم الذات " [١٦] ثم " تقديم الذات للآخرين " [١٧] ، كذلك نجد كتّاب المكان ، يحققون ذلك الفهم – للمكان – عبر فعل الكتابة ، واستنطاق المكان ، حيث " لايخلو شيء من قول ... والمهم في الأمر أن نستمع لذلك القول ونقرأ كلماته " [١٨] .

ومع إن للمكان صفة الشراكة الجماعية " فالخلاص في أن ننفذ إلى ما نرى ، وأن نقدّم للآخرين قولاً مختلفاً عما ألفوه " [١٩] ، ذلك أن " وظيفة ابتكار الصورة الكلية لمدينة مثالية تنحصر في التعريف بوجود مدينة جزئية حقيقية " [٢٠] يجب تقديمها للآخرين . أما من جهة شروط الكتابة ، فشرط أن " تُكتب السيرة الذاتية مرة واحدة لا تتكرر " [٢١] . ذلك أن " الأحداث غير قابلة للتكرار " [٢٢] بينما تتكرر كتابة نص المكان ، حول مكان محدد واحد، تبعاً لتعدد رؤى الكتّاب للمكان . إذ أن " هويّات المكان تبلغ من الكثرة قدر ما يوجد من الناس " [٢٣] . أي تتعدد نصوص المكان على وفق تعدد رؤى الكتّاب . كما يشترط بعضهم أن يكون كاتب السيرة الذاتية ليس عادياَ ، بأن يبلغ شوطاً كبيراً من حياته ، وأن يكون من ذوي الشهرة [٢٤] ، بينما لايشترط ذلك في كتّاب نصوص المكان الذاتي ، فالتفاوت كبير وواضح سواء من حيث المستوى الثقافي أو من حيث التخصص في مجال الكتابة . إذ نجد المهندس المعماري إلى جانب القاص والروائي ، كما نجد الشاعر إلى جانب الباحث والكاتب المسرحي ، ونجد الناقد الى جانب الموسيقي والمترجم [٢٥] .

٣–المكان في السيرة الذاتية ونص المكان :إن المكان المرجعيّ في كلا النوعين ، واقعيّ ، حقيقي، ذلك بما يحتوي من تجارب شخصية ، وأحداث واقعية ، تُكسب المكان روحاً " تنطوي على الطبوغرافية والمظهر ، والوظائف الإقتصادية والنشاطات الإجتماعية والأهمية الخاصة المستمدة من الأحداث الماضية والظروف الحالية " [٢٦] وهو بذلك يكون " ذاكرة مؤسسة للإنتاج المعرفي " [٢٧] ، عبر " قراءة سايكولوجية ساكنيه وطريقة حياتهم وكيفية تعاملهم مع الطبيعة " [٢٨] . إلا أن هذه القراءة ، تتمثل في السيرة الذاتية عبر فعل التذكّر ، " حيث يقيم كاتب السيرة لذاته عالماً يصوّر فيه علاقته بالمكان ، على الرغم من غيابه عن ناظريه حين تعاد صياغته خطياً، إذ يخضع لتقنية بناء جديدة ، أساسها تخيّل ما يحيط بالمواقف الحياتية من تفصيلات مكانية يتمّ استدعاؤها ، وهذه العملية وإن كانت معتمدة بالأساس على عنصر القصدية في تجلية أمكنة واختزال أخرى ، لا تخلو من ذوق فني يضفي رمزية على الأمكنة في علاقتها بالذات المبدعة " [٢٩].ولكننا نجدها –القراءة السايكولوجية للمكان– في نصوص المكان تتمثل في فعل التذكّر إلى جانب الرصد عبر " الجولة في ترقب البيوت القديمة أولاً ، وتلمس سطوحها وتلقي خطابها والإنحناء لجلال حضورها "[٣٠]، ثانياً . حيث المكان هو المقصد . " وقد يبدو المكان المجرّد فكرة مؤسسة ومنظمة للإدراك ، غير إن المهم في الأمر هو الأمكنة موضوع التلقي والمعاشرة والعلوق ، تلك التي تقدّم للعقل معلوماته الحسية والذهنية وهو يدّون تقرير الوعي بالوجود " [٣١]وليس الوعي بالذات فقط ، كما هو الحال في السيرة الذاتية .

إنّ المكان في السيرة الذاتية يوحي بتذكّر الأحداث والشخوص والتجارب الشخصية ،.. في الدرجة الأولى ، وهذا الأمر على الرغم من حضوره في نص المكان ، إلا أنه يكون ثانوياً ،عادة ، فالتركيز على المكان المرجعي فيه ، يكون على المكان ذي السمة المأساوية – في حال التراجع والخراب – مقارنة بوضعه في الماضي حيث الألفة والحياة . وفي أثناء هذه المقارنة يُخلق المكان الذاتي في هذه

النصوص ، من خلال تقاطع صورتين ، ظاهرة أمام الكاتب ، ومبطّنة في ذهنه . " فتلك ذاكرة المشي مقيّدة بأمكنتها الأولى والأخيرة " [٣٢] . يقول محمد خضير في هذا المجال " نخرج لنمشي ... ونستمر في المشي بحثاً عن طرق أخرى لا نكترث الى أين تؤدي ، فقط تمتد وتتصل . نمشي دون أن ننظر الى الناس أو العجلات... نمشي مادامت هناك طرق تسعُ أرصفتُها خطواتنا " [٣٣] .فالمشي لا يكون لشيء إلا للإحاطة بالمكان وإدراكه ومن ثم إدراك الوجود من خلاله . من هنا تنشأ العلاقة التبادلية بين المكان والمكين . علاقة (أنا وأنت) ، " التي يستبدل فيها استبدالاً كاملاً بالتقسيم إلى ذات وشيء ، شخص ومكان ، العلاقة نفسها ، وذلك لأنها كاملة ومتبادلة "[٣٤]. وقد لخص ذلك الفيلسوف الفرنسي جابريل مارسيل في قوله " لايتميّز الفرد عن مكانه ، إنه ذلك المكان " [٣٥] .

٤- جمالية المكان الذاتي مقارنة بالسيرة الذاتية :- مثلما يشترك نص المكان الذاتي مع السيرة الذاتية ، في اتخاذ ضمير المتكلم صيغة للحكي، وحيث أن المؤلف مطابق للراوي والشخصية في كلا النصّين . كذلك يشترك النوعان في استدعاء اللذة الفنية للمؤلف . " تلك اللذة الفنية الفريدة المتمثلة في فعل الكتابة ذاته ... ذلك ان كاتب السيرة الذاتية يتلذذ باستحضار الذكريات السعيدة التي عاشها " [٣٦]، وكذلك كاتب المكان الذاتي . إلا أن سلطة (الأنا) في السيرة الذاتية تكون مطلقة ، حيث يقع التركيز " على الداخلي متمثلاً في صاحب السيرة الذاتية وكاتبها أكثر مما يقع على غيره ، ولكأن بقية الشخصيات لا تفعل في السيرة الذاتية إلا خدمة لصاحبها أثراً وتأثيراً " [٣٧] . وبذلك نجد أن سلطة (الأنا) ، " تكبّل الفعل السردي وتقلص من حجمه وتعوق انطلاقه نحو ارتياد العوالم الخيالية في كامل غناها وتنوعها . فعالم السيرة الذاتية يبني ذاته استناداً إلى تفاصيل عالم الذات الفعلي ورؤاها الخاصة ومن ثم فهو صدى مبحوح لتجربة فردية محدودة الزمان والمكان ، وهذا ما يجعل منه عالماً أحادي البعد على المستوى الفكري والأسلوبي ، ومن ثم يسمح بتأويل واحد لتعددية مظاهر الحقيقية الواقعية "[٣٨] ، ذلك لأن عالم

التجربة " يكون محصوراً في الأنا، وهذا يعني أن هذه التجربة غير قادرة على أن تتخطى الأنا وتصل العالم الخارجي " [٣٩] . أما في عالم المكان الذاتي ، نجد العكس من ذلك ، إذ تكون الرؤية فيه من الخارج / المكان إلى الداخل / الذات . " فعلى الرغم من أن الذات والعالم الخارجي مختلفان في صفاتهما الأساسية إلا أنهما يمكن أن يجتمعا في التجربة التي تضم كل الأختلافات " [٤٠] . بمعنى إن كاتب السيرة يصف المكان محدوداً بحدود التجربة الذاتية ، فهو يكشف عن ذاته في المكان . بينما يكشف كاتب المكان الذاتي عن أسرار مكانه ،عبر شعرنة المكان وتصويره .يصف محمد خضير تجربته المباشرة مع المدينة بقوله : " لم نكن عرفنا زوايا المدينة التي نعيش فيها كلها ... كانت المدينة مكاناً لايُقصَد من دون تهيؤ أو مساعدة لكننا فيما بعد ، بتجوّل طائش ومداهمات نزقة أو نزهات حذرة ، أخذنا نكتشفها جزءاً فجزءاً . ولما عرفناها... نحس اليوم أن معرفتنا أسرارها وصلت حدَاً لا نقوى بعده على كتمان هذه الأسرار عمّن يأتي بعدنا " [٤١] . وبذلك سوف تكون " أسمى صورة للتجربة المباشرة هي تلك التي تجمع فيها الأنا والعالم الخارجي"[٤٢] .

أما سرديات السيرة الذاتية ، فهي في أسمى حالاتها ، تكتشف البعد الخلقي لبناء الهوية للفرد ، واكتشاف النسيج الخلقي للعوالم الأجتماعية التي تظهر فيها [٤٣] فقط . فهي – السيرة – "تعرض للفرد في نطاق المجتمع ، وتعرض أعماله متصلة بالأحداث العامة او منعكسة فيها أو متأثرة بها فإن السيرة في هذا الوضع تحقق غاية تاريخية " [٤٤] .

وهذه الغاية ، تنضاف إلى غايات أخرى يحققها المكان الذاتي ، فلسفية /جغرافية /أخلاقية / خيالية .. ذلك أن السيرة " فن لا بمقدار صلتها بالخيال ، وأنما لأنها تقوم على خطة أو رسم أو بناء... من حيث ان صاحبه (الفن) معنيّ بغاية محدودة تهديه في اختياره وترتيبه للحقائق ، وهو كالروائي والقاص أيضاً ، يحاول أن يكشف الصراع بين بطل سيرته والطبيعة ، وصراعه مع الناس الآخرين ومع

نفسه وهو يحاول أن ينقل الى القرّاء حقيقة ذات قبول عام ، ولكنه لا يستطيع أن يحكّم خياله في أجزائها ، وبدلاً من أن يقف موقف الخلاّق تراه يقف موقف المستكشف المفسر لأشياء وأشخاص وجدوا في الحقيقة " [٤٥]. إنَّ " كاتب السيرة الذاتية قريب الى قلوبنا ، لأنه انما كتب تلك السيرة من أجل أن يوجد رابطة ما بيننا وبينه ، وأن يحدثنا عن دخائل نفسه وتجارب حياته " [٤٦] ، إذ أن ذاكرة السيرة الذاتية هي " مصدر جديراً بالثقة وغير ملتبس نسبياً لمعلومات عن الماضي " [٤٧] . أما كاتب المكان الذاتي، فإنه يجمع مابين هذه المزية ومزية أخرى ، هي اكتشاف سرّ المدن وقراءة معالمها ، عبر سماع شكوتها وتدوين لوعتها .. فهل هذا ممكن ؟ !

يجيب كُتّاب المكان الذاتي : " نعم تستطيع الأمكنة في حالة تجريد خالصة البوح عن سرّ كينونتها " [٤٨] . ويقول غالب الأسدي : " صراخ وأنين وشكوى ، تأتي من نوافذ الأبنية وتتسرب من جدرانها وقد تعرضت الى الأذى والتهديم " [٤٩] ، ويؤكد سعد محمد رحيم ، على أنك " لن تخبر مدينة على حقيقتها مالم تجس خلل ليلها .. مالم تتشرب فتنة عتمتها، وأنفاس أضوائها ، ومالم تتحسس غموض لوعتها وهي تنسج أحلامها في خبائها السرّي " [٥٠] فثمة " علاقة منسجمة بين الأمكنة والذاكرة " [٥١] يكشف عنها كتّاب النصوص المكانية في تساؤلاتهم مثل : " هل تكفي سجلاّت الكون لتدوين دراما ما يدور هنا ؟! " [٥٢] . هكذا نستشعر العلاقة التبادلية بين الإنسان والمكان من خلال قراءة هذه النصوص . وبذلك تكون السيرة الذاتية مقيّدة " بقيود قانونية قوية ، ويكون مجال المعاني المحتملة محدوداً نسبياً " [٥٣] . ذلك لأن أصواتها تبقى " فردية بدرجة كبيرة ومحددة ذاتياً " [٥٤] . ذلك " أن المسار الداخلي هو المسار الوحيد الذي يجب السير فيه " [٥٥].من هنا تكون " السيرة الذاتية كما هو معلوم من أقل الفنون الأدبية احتفاء بالأبعاد الجمالية والأسلوبية " [٥٦] . إذ " لاشك أن الحكي كما بدا لنا في مدونتنا العربية درجات ، يبلغ أقصاها في السيرة الذاتية ذات الشكل الروائي ويصل درجته الدّنيا في السيرة الذاتية ذات

شكل أدب الوقائع ... وبدرجة أقل في السيرة الذاتية ذات شكل الرسم الذاتي" [٥٧]. فالسيرة الذاتية الروائية " تمتزج فيها ملامح السيرة الذاتية بخطابها الاعترافي التصريحي ، وبانطوائها على شيء من الوثائقية في تعاملها مع الحوادث والتواريخ ، وفي انطلاقها من التماثل بين صوت الراوي وصوت المؤلف ، بسمات الخطاب الروائي بحريته التخيلية ترهف على الذاكرة الإنتقائية ، وتحيله من سرد تتراكم فيه الحوادث كما دارت الى إبداع روائي تلعب فيه عمليات الإنتقاء والتوليف والتخييل، والتحاور في الأزمنة ، وأحداث متباعدة تفوق أدوارها في السيرة الذاتية التقليدية " [٥٨]. إلا أنها على جماليتها وتنوعها الوظيفي توصف بأنها " تهجين سردي وظف وأعاد توظيف كشوفات السيرة الذاتية والرواية "[٥٩] . بينما نجد المكان الذاتي ليس تهجيناً ، وإنما نوع قائم بذاته يتخّذ من موضوعة المكان أساساً له . وتندرج كشوفات باقي الأنواع الأدبية تحت لوائه . حيث نجد السيرة بأنواعها وتعدد أشكالها إلى جانب الخطاب الروائي ، فضلاً عن القصة القصيرة والشعر والمقال .

النتائج

١: إنّ المكان الذاتي والسيرة الذاتية ، ينتميان الى الجنس الحكائي . فكلاهما سرد كتابيّ يعتمد القصّ الإرتدادي ذا المرجعية الواقعية .

١- يتطابق المؤلف مع الراوي مع الشخصية الرئيسة ، في كلا النوعين ، إلا أن النمط التخييلي في نصوص المكان ، يستدعي راوياً / حكّاء ، يكون بمثابة المحاور للشخصية الرئيسية المطابقة للمؤلف .

٢- يفترق نص المكان عن السيرة الذاتية في تناولهما للموضوع المطروق . ففي السيرة الذاتية يكون الموضوع قصة حياة الفرد / المؤلف ، أما في المكان الذاتي فالموضوع هو المكان المرجعي .

٣- أما دواعي الكتابة ، فهي في السيرة الذاتية ، بمثابة القول الحاسم لما يتعلق بمسيرة حياة الكاتب، بينما تكون–دواعي التأليف– في نصوص المكان ، إن الكاتب

يقدّم قراءته للمكان من خلال الوعي والشعور بالمسؤولية تجاه المكان وهو في حال التراجع والإندثار .

٤- يذكر المكان المرجعي في السيرة الذاتية عبر فعل التذكّر – غالباً – وهو أي المكان ،عرضيّ لأنه عنصر بنائي ، أما في نصوص المكان فيذكر عبر فعل التذكّر، وفعل المشي والرصد المباشر، بحكم استمرارية العلاقة ، بين المكان والكائن .

٥-**يصطبغ نص السيرة الذاتية** ، بصبغة تاريخية ، ذلك لأنه يعرض هوية الفرد / الكاتب ، وأفراد مجتمعه وهذه الغاية متحققة في المكان الذاتي أيضا، فضلاً عن تحقق غايات أخرى ، مثل الفلسفة ، والجغرافية ، والخيال .. فيكون كاتب السيرة الذاتية ناقلاً لتجربته الشخصية ، بينما يكون كاتب المكان الذاتي ناقلاً لتجربته وتجارب الآخرين ،حيث يختار شخوصه من الواقع ، فيسرد القصص والأحداث التي وقعت لهم في ذلك المكان . كاشفاً عن أسرار المدن ، والعلاقة الحميمة بين الكائن والمكين .

٦-**وأخيراً** ، **توصل البحث** ، إلى أن أقرب الأنواع الأدبية للمكان الذاتي ، هو السيرة الذاتية الروائية، ذلك لإشتراكها مع المكان الذاتي في عدّة جوانب ، ومنها الإمتزاج بين الواقعي والتخييلي ، إلا أنها توصف بالتهجين من جنس السيرة الذاتية ، والرواية ، بينما نجد المكان الذاتي نوعاً قائماً بذاته ، ذلك لفرادة الموضوع وجدّته من جهة ، ولإحتوائه وانفتاحه على تنوعات كتابية من جهة أخرى .

الهوامش

١. السيرة الذاتية (الميثاق والتاريخ الأدبي)، فيليب لوجون : ١٠ .

٢. نفسه :٢٢ .

٣. قاموس اوكسفورد ، نقلاً عن السيرة الذاتية وحقائقها في التاريخ ، محمد يوسف http://www.iid-alraid.de : ١

٤. المعجم المفصل في الأدب ، محمد التونجي : ٥٣٦ .

٥. السردية العربية ، عبد الله إبراهيم : ١٤٣ .

٦. ينظر معجم السرديات ، محمد القاضي وآخرون : ٢٦٠-٢٦١ .

٧. عندما تتكلم الذات ، محمد الباردي : ٦٦.

٨. الباب الشرقي ، خصير الزيدي : ٦٨-٦٩ .

٩. نفسه : ٧٥ .

١٠. سكنى المكان ، أسعد الأسدي : ٣٥ .

١١.نفسه : ٤٤ .

١٢.نفسه : ٧٧ .

١٣.السرد والهوية ، جينز بروكمير و دونال كريو ، ترجمة : عبد المقصود عبدالكريم : ١٦٢-١٦٣.

١٤.هكذا ينظر كتّاب هذا النوع ، ومنهم خضير الزيدي في نصه : أمكنة تُدعى نحن ،:٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ .

١٥.كما يرى كاتب المكان أسعد غالب الأسدي في نصه : سكنى المكان ، سابق : ٧٨ .

١٦.السرد والهوية ، سابق : ١٣٦.

١٧.نفسه : ١٤٧ .

١٨.سكنى المكان ، سابق : ٣٣.

١٩.نفسه : ٢٣ .

٢٠.يرى محمد خضير ضرورة حضور المكان المرجعي ليُسهم في بناء المكان الذاتي المفترض بصرياثا: ١٩.

٢١.عندما تتكلم الذات ، سابق : ٥٢ .

٢٢.السرد والهوية ، سابق : ١٣٦.

٢٣.المكان واللامكان ، إدورد رلف ، ترجمة: منصور محمد البابور : ٩٩.

٢٤.يُنظر : عندما تتكلم الذات ، سابق : ٥٥

٢٥.يُنظر : المكان العراقي ، سابق : ٣٢٢، ٣٢٣ ، ٣٢٤ .

٢٦.المكان واللامكان ، سابق : ١٠٤ –١٠٥ .

٢٧.ثقافة المكان وأثرها في الشخصية الروائية رواية (ليلة الملاك) أنموذجاً ، فارس عبد الله بدر الروادي : ٢٦٥ .

٢٨.الرواية والمكان ، ياسين النصير : ١٧ .

٢٩.أدبية السيرة الذاتية ، ناصر بركة : ١٦١–١٦٢ .

٣٠.سكنى المكان ، سابق : ٣٣ .

٣١.نفسه : ٢٨ .

٣٢.الباب الشرقي ، سابق : ٦١ .

٣٣.بصرياثا ، سابق : ٢٨

٣٤.المكان واللامكان ، سابق : ١٣٤–١٣٥ .

٣٥.نفسه : ٩٦ .

٣٦.عندما تتكلم الذات ، سابق ٦٦ .

٣٧.سير المفكرين الذاتية ، صدوق نور الدين : ١٧ ، نقلاً عن السيرة الذاتية الروائية . التناقد الأجناسي وإشكالية التصنيف ، جولان حسين جودي ، وعدنان حسين العوادي : ٧٨ .

٣٨.يُنظر أسلوبية الرواية – مدخل نظري – ، حميد لحميداني : ٤٤ ، نقلاً عن السيرة الذاتية الروائية ، سابق : ٧٨ .

٣٩.مفهوم المكان والزمن في فلسفة الظاهر والحقيقة دراسة في ميتافيزيقيا برادلي ، محمد توفيق الضوي ، ٤٣.

٤٠.نفسه : ٤٣ .

٤١.بصرياثا ، سابق : ٢٥.

٤٢.مفهوم المكان والزمن في فلسفة الظاهر والحقيقة ، سابق : ٤٣ .

٤٣.يُنظر السرد والهوية ، سابق : ١٣٢ .

٤٤.فن السيرة ، احسان عباس : ١٢.

٤٥.نفسه : ٨٤–٨٥ .

٤٦.نفسه : ٩٣–٩٤.

٤٧.السرد والهوية ، سابق : ١٤٩ .

٤٨.أمكنة تدعى نحن ، سابق ١٣ .

٤٩.سكنى المكان ، سابق : ٤٥.

٥٠.بعقوبة .. ابتكار البساتين ، سعد محمد رحيم ، المكان العراقي : ٢٢٣.

٥١.الباب الشرقي ، سابق :٤٢.

٥٢.نفسه :١٥٠.

٥٣.السرد والهوية ، سابق : ١٣١.

٥٤.نفسه : ١٥٣ .

٥٥.نفسه : ١٥٧ .

٥٦.كتابة الذات دراسات في السيرة الذاتية ، صالح معيض الغامدي : ٢٧٦ .

٥٧.عندما تتكلم الذات / سابق : ١٨٥-١٨٦.

٥٨.البنية النصية لسيرة التحرر من القهر : التذييل الذي أنجزه الدكتور صبري حافظ لسيرة محمد شكري الذاتية ، ٢٢٧ ، نقلاً عن السيرة الذاتية الروائية : التناقد الأجناسي وإشكالية التصنيف ، سابق : ٨٤ .

٥٩.موسوعة السرد العربي ، سابق : ٦٩٣ .

المصادر

١. أدبية السيرة الذاتية في العصر الحديث ، ناصر بركة ، اطروحة دكتوراه ، الجزائر ٢٠١٣.
٢. أسلوبية الرواية – مدخل نظري – ، حميد الحميداني ، منشورات دراسات سيميائية أدبية لسانية ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، ١٩٨٩ . .
٣. أمكنة تُدعى نحن ، خضير فليح الزيدي ، الينابيع ، دمشق ٢٠١٠ .
٤. الباب الشرقي رواية الضحك بلا سبب ، خضير فليح الزيدي ، دار ومكتبة عدنان ، بغداد ٢٠١٣.
٥. بصرياثا صورة مدينة ، محمد خضير ، منشورات الأمد ، بغداد ١٩٩٣.
٦. البنية النصية لسيرة التحرر من القهر : التذييل الذي أنجزه الدكتور صبري حافظ لسيرة محمد شكري الذاتية ،
٧. ثقافة المكان وأثرها في الشخصية الروائية رواية (ليلة الملاك) أنموذجاً ، فارس عبد الله بدر الرحاوي ، مجلة أبحاث كلية التربية الآساسية ، مج١١ ، ع ٢، ٢٠١١.
٨. الرواية والمكان ، ياسين النصير ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ١٩٨٦ .
٩. السرد والهوية ، جينز بروكمير و دونال كريو ، ترجمة عبد المقصود عبدالكريم ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ٢٠١٥ .
١٠. السردية العربية : بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي ، عبد الله إبراهيم ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ، ط٢/٢٠٠٠ .
١١. سكنى المكان ، أسعد الأسدي ، أزمنة ، للنشر والتوزيع عثمان ، ٢٠١١ .
١٢. سيرة المفكرين الذاتية – دراسة وتحليل– ، صدوق نور الدين ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ٢٠٠٠ .
١٣. السيرة الذاتية الروائية : التنافذ الأجناسي وإشكالية التصنيف ، جولان حسين جودي وعدنان حسين العوادي ، مجلة القادسية للعلوم الإنسانية ، ع١ ، ٢٠١٠ .
١٤. السيرة الذاتية (الميثاق والتاريخ الأدبي)، فيليب لوجون ، ترجمة : عمر حلمي ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ١٩٩٤.
١٥. موسوعة السرد العربي ، عبد الله إبراهيم ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط١ ، بيروت ٢٠٠٥ .

١٦. عندما تتكلم الذات ، السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث ، محمد البارودي ، اتحاد الكتّاب العرب ، دمشق ، ٢٠٠٥.
١٧. فن السيرة ، احسان عباس، دار صادر ، بيروت ١٩٩٦.
١٨. قاموس اوكسفورد ، نقلاً عن السيرة الذاتية وحقائقها في التاريخ ، محمد يوسف : http://www.iid-alraid.de
١٩. كتابة الذات دراسات في السيرة الذاتية ، صالح معيض الغامدي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء المغرب ٢٠١٣.
٢٠. معجم السرديات ، محمد القاضي وآخرون ، دار محمد علي للنشر – تونس ٢٠١٠.
٢١. المعجم المفصل في الأدب ، محمد التونجي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط٢ /١٩٩٩
٢٢. مفهوم المكان والزمن في فلسفة الظاهر والحقيقة دراسة في ميتافيزيقيا برادلي ، محمد توفيق الضوي ، منشأة المعارف بالاسكندرية . (د.ت)
٢٣. المكان العراقي ، جدل الكتابة والتجربة ، لؤي حمزة عباس ، دراسات عراقية ، بغداد ٢٠٠٩.
٢٤. المكان واللامكان ، إدوارد رلف ، ترجمة : محمد منصور البابور ، دار الكتب الوطنية ، بنغازي – ليبيا ٢٠٠٨.